

" الطب الشعبي : الواقع و الرهانات "

أ.د بن منصور مليكة جامعة تلمسان

أ . عبدالقادر معازيز جامعة تلمسان

ملخص

يعتبر الطب الشعبي من المواضيع التي تطرق لها علماء الأنثروبولوجيا، حيث أنهم أسسوا فرعا خاصا يعرف باسم : الأنثروبولوجيا الطبية، و باعتباره موروثة ثقافيا و ما ينجز عنه من مفاهيم و معتقدات و ممارسات متداولة في حياة الناس ، فقد صيغت حوله خطابات كثيرة و متنوعة مما أدى إلى ترسيخها في الخيال الجمعي للناس، و بالتالي فالمرض و الصحة وجهان لعملة واحدة، تعبيرا عن معتقدات وقيم سائدة، فهو ما يمكن اعتباره معرفة اجتماعية، تستهدف أساسا المحافظة على صحة الإنسان من جميع الأمراض التي قد تصيبه لأسباب معينة، حيث نجد أنه سعى منذ الأزل إلى استنباط حلول علاجية من البيئة التي يعيش فيها، بل و تطويرها حتى وصلت إلى ما هي عليه اليوم، لذلك تميزت تلك الممارسات العلاجية بالتنوع و الاختلاف من حضارة إلى أخرى، و لفهم حقيقة وواقع الطب الشعبي، و حتى التحديات التي أصبح يواجهها هذا النوع من العلاج في مجتمع أهم سماته التطور و الحداثة.

مقدمة

شهدت ميادين العلم تقدما كبيرا، و خصوصا في مجال الطب ، و رغم ذلك التطور الهائل الحاصل على مستوى التقنيات الصناعية، فإن الحاجة إلى العلاج الطبيعى ما تزال قائمة، باعتبار مصدره الطبيعى، في تناول جميع الناس، و لأنه العلاج الذي يعفى المريض من الآثار السلبية التي يخلفها التصنيع الكيميائي⁽¹⁾ و لعل خير دليل على ذلك ما ذكره أحد المؤرخين الفرنسيين من ازدياد عدد المشعوذين غير المجازين أو الأطباء الشعبيين في فرنسا، حيث ذكر بأنه >> لا يمكن إنكار النجاحات التي يحققونها في معالجة الكثير من الأمراض الوظيفية و الجلدية <<⁽²⁾ ، و من بين هذه العلاجات نجد الطب الشعبي (folk médecin)-1 و الذي خطاب معرفي وممارسة بشرية يستبطن نسقا من العلاقات بين الإنسان وبين ما يحيط به من بشر وكائنات وكون وخالق وغيبيات وتصورات وغيرها. إنه باختصار يستبطن «رؤية كونية» معينة، وبناء على هذه «الرؤية الكونية» للعالم والبشر والكائنات تتحدد نوعية الممارسة الطبية المشروعة. وعلى هذا فإن ممارسة طبية قد تكون مشروعة في ثقافة ما ومجتمع ما، غير أنها قد تنقلب إلى ممارسة غير مشروعة في ثقافة ومجتمع مختلفين. فما هو ممارسة طبية سليمة ومشروعة قد تغدو ضربا من الخرافات أو السذاجة العلمية أو القسوة غير المقبولة وغير الإنسانية. وهذا ما ينطبق على الحجاماة والكي والعلاج ومداواة الجروح والكسور بالطين والعسل والقهوة ومعمول التمر وقشور بعض الفواكه وغيرها، كل هذه ممارسات كانت في يوم من الأيام ممارسات طبية مقبولة، وأصبحت اليوم إما ضربا من ضروب الغباء والجهل أو ضربا من ضروب الوحشية والقسوة. و عليه

ما هو مفهوم الطب الشعبي و ما هي خصائصه و التطورات التي عرفها قديما و حديثا عند الشعوب و الحضارات المختلفة ؟ ثم ما مدى صموده، أو بالأحرى مدى نجاحه في المحافظة على استمراريته في ظل هذا الواقع المتغير؟

1 - مفهوم الطب الشعبي:

1-1 المفهوم اللغوي: مصطلح شعبي لغة مصدره شَعِبَ و شَعْبٌ، و هو يعني خضوع مجموعة من الناس لنظام اجتماعي معين (3)

و يرى أحمد الجوهري أن صفة الشعبية يقصد بها كل معتقد يؤمن به الشعب فينبعث من نفوس أبنائه عن طريق الكشف أو الرؤية أو الإلهام (4)

1-2 المفهوم الاصطلاحي: تعددت و تنوعت تعريفات الطب الشعبي منها غلى سبيل المثال لا الحصر تعريف " فوشر " حيث يرى أن الطب الشعبي بمفهومه المعاصر هو مجموعة متنوعة من الخبرات و المعلومات الناجمة عن الملاحظة الفضولية و مناهج البحث (5) ، هذا، و يعرف الطب الشعبي على أنه مجموعة المعارف و المهارات و الممارسات القائمة على النظريات و المعتقدات و الخبرات الأصلية، التي تمتلكها مختلف الثقافات و التي تستخدم للحفاظ على الصحة و الوقاية من الأمراض الجسدية و النفسية أو تشخيصها أو علاجها أو تحسين أوضاع المصابين بها (6)

و في ذات السياق ، و لإزالة اللبس عند الحديث عن الطب الشعبي و الطب البديل، و أيضا الطب البدائي ، نجد أن الطب البديل يطلق غلى مجموعة واسعة من الممارسات العلاجية التي لا تعد من فروع الطب التقليدي، و يستخدم أطباء الطب

البديل أساليب طبيعية لعلاج الأمراض، و يعتقدون أن جسم الإنسان يستطيع مداواة نفسه إذا ما سنحت له الفرصة.

و يصف معظم الأطباء أساليب الطب البديل بأنها غير علمية، غير أن بعض الأطباء بدأ وافي مزج أفضل الأفكار و الممارسات التي يتميز بها الطب التقليدي و الطب البديل لمعالجة المرض، و أطلق على العلم الذي يستخدم الطب البديل كعامل و مساعد و مكمل للطب التقليدي بإسم الطب " المتمم " و " البديل " (7) ، في حين نجد الطب البدائي يستخدم نفس العناصر الشائعة من المواد العلاجية للطب الشعبي و أحيانا يشترك معه ، لكن يختلفان في السياق الثقافي الاجتماعي، ففي حين يهيمن الطب البدائي داخل المجتمعات التي تتسم بالبدائية و التخلف، نجد الطب الشعبي يتعايش مع أنماط أخرى للعلاج مثل الطب الحديث (8)

2 - أنواع الطب الشعبي

بالحديث عن أنواع الطب الشعبي، نجد أنه ينقسم إلى: الطب الشعبي الطبيعي و الديني و الممارسات العلاجية المنزلية

1-2 الطب الشعبي الطبيعي: هو الذي يعتمد على عناصر طبيعية نباتية و حيوانية و غلى مستخلصاتها (9) فنجد على سبيل المثال الأعشاب الطبيعية و هي الأعشاب التي تحتوي في جزء أو أكثر من أجزائها على مادة فعالة واحدة، أو أكثر ويمكن أن نعالج بها مرضا معينا(10) ، و يوجد عدد كبير من العناصر الطبيعية، قد أكد الدين الإسلامي فعاليتها فورد ذكرها في القرآن الكريم كالتين و الزيتون ، التمر ، الرمان ، العسل و غيرها، أو في وصفات الطب النبوي كالحبة السوداء و الحناء.... إلخ.

و تتنوع العناصر النباتية بين خضروات و فاكهة و نباتات عطرية و أعشاب تستعمل، بعض أجزائها كالثمار و الأزهار و الأوراق و الجذور و غيرها ... و في الواقع إنه لأمر مثير للاهتمام، و ملفت للانتباه، أن تكون كل الحضارات، في كل القارات قد مالت إلى البحث في الخصائص العلاجية للنباتات، حيث انتقلت تلك المعارف عن القدرات العلاجية لتلك النباتات عبر آلاف السنين بل و تعمقت و تنوعت ، دون أن تتعرض للزوال وحتى في أيامنا هذه، و التي لا تزال مستخدمة على نطاق واسع.

2-2 الطب الشعبي الديني: استند إلى فكرة أساسية مفادها أن أسباب المرض أو بعض الأعراض المرضية، كالصداع المستمر أو النزيف أو المغص ترجع إلى تأثير العين و السحر أو تأثير أحد الكائنات فوق الطبيعية كالجن أو الشياطين و بالتالي لا بد أن تتضمن طرق العلاج طرقا دينية أو سحرية تتفق و أسباب المرض، قد تكون منزلية يجريها الإنسان لنفسه أو لذويه ، أو يتم فيها اللجوء إلى ممارسين متخصصين كالرعاة أو المشعوذين.(11)

2-3 الممارسات العلاجية المنزلية خطوة أولى غالبا لعلاج أعراض مرضية بسيطة كالصداع أو المغص، كما قد تكون ممارسات أخيرة يتم اللجوء إليها - أحيانا - بعد محاولات أخرى علاجية شعبية أو رسمية مثل طرق علاج الآلام الروماتيزمية أو العقم (12)

و من بين أهم تلك الممارسات نجد التداوي بالأعشاب و النباتات (13)، و الذي اعتبره البعض أبا للعلاج الطبيعي، حيث لجأ إليه الإنسان منذ القدم، فاعتمد على ما تقدمه له الطبيعة الغنية من مواد أولية في هذا المجال، مكشفا لآثارها و مفاعيلها و

مطورا لخصائصها و تراكيبها ، فقد استطاع الإنسان منذ أزمنة بعيدة أن يكشف أثر النباتات و الأعشاب على صحته العامة، و لم يكن ذلك دفعة واحدة، و إنما حصيلة ملاحظة و تجربة طويلتين، فتركت لنا الحضارات القديمة نقوشا و آثارا تشير إلى استخدام النباتات و الأعشاب في العلاج الطبي.(14)

3- تطور الطب الشعبي و مع تطور المعارف الإنسانية و تراكم المعلومات في عقل الإنسان، انتقل من طور استعمال النباتات البرية الموجودة في الطبيعة إلى طور زراعة النباتات المطلوبة في العلاج(15) ، ومن الطرق التقليدية للعلاج الطبيعي نجد " التدليك " ، فلو رجعنا إلى معابد قدماء المصريين " بالأقصر " لوجدنا أن التدليك كان شائعا منذ سبعة آلاف سنة ، و لو قرأنا " الإلياذة " و " الأوديسة " ، و هما أشهر مرجعين من الأساطير اليونانية ، لوجدنا ذكر عن الضباط و العساكر و ما كانوا يحظون من تدليك لأجسادهم بعد عودتهم من الحرب ، فاعتبر لذلك التدليك جزءا لا يتجزأ من العلاج الطبيعي ، أو العلاج بالطرق الطبيعية (16)، و ليس التدليك و حسب ، و إنما شاعت عديد من الوسائل و الطرائق المستخدمة في العلاج الشعبي ، و التي تعود المعالجون الشعبيون استخدامها في معالجة الحالات المرضية التي يواجهونها منها مثلا ، ما هو شائع في المجتمع الجزائري من استخدام للكي و التجبير في حالة الكسور ، أيضا معالجين بالتدليك و الأعشاب ، و اللجوء إلى الرقية و الحجامة

و بالنسبة للعالم العربي بصفة عامة ، فإنه أخذ في التطور منذ ق 2هـ/8م ، في الجزء الشرقي من العالم العربي ، أي في المنطقة التي تشمل العراق و الشام و إيران و مصر، و قد انطلقت حركة التطور هذه بالشرق قبل أن تصل المغرب ، و السبب في ذلك قد يعود إلى الإرث الهائل الذي تسلمه المشرق من حضارات بلاد الرافدين و مصر

و الهند اليونان ، وهو الإرث الذي أثاره العرب ثم أوصلوه بدورهم إلى العالم الأوروبي(17)

و كانت قد انطلقت ببغداد في عهد الخلفاء العباسيين حركة ترجمة واسعة نقلت إلى اللغة العربية أمهات الكتب الطبية الأجنبية و خاصة اليونانية، و في فترة لاحقة ساهم المغرب العربي و بلاد الأندلس بأعمال عظيمة في هذه الدفعة (18) أي فيما يتعلق بأساليب علاج المرض.

و قد اعتمد كثيرا على النظام الغذائي في الحضارة العربية الإسلامية ، يشهد له عدد النصائح المتعلقة التي تحتوي عليها الأحاديث النبوية و كتب علم النبات و الفلاحة (19) ، فالرسول الكريم - صلى الله عليه و سلم - كان يعرف الكثير من الطب الشافي في عصره ، و كان طبيا بسيطا و لكنه نافع يقوم على التجربات ، و في سيرته - صلى الله عليه و سلم - شواهد على ذلك ، حيث كان يرى عليه الصلاة و السلام أن درهم وقاية خير من قنطار علاج ، و لهذا فإن أحسن ما تصح به الأبدان هو مراقبة الطعام ، فكان يرى ألا يأخذ الإنسان منه إلا ما تمس إليه الحاجة ، و من أحاديثه البالغة الحكمة قوله : " نحن قوم لا نأكل حتى و إذا أكلنا لا نشبع " ، و من أحاديثه " جوعوا تصحوا " .

كما كان قوله الشريف - صلى الله عليه و سلم - " المعدة بيت الداء، الحمية رأس الدواء " و تلي مراقبة الطعام في الطب النبوي النظافة، فقد كان - صلى الله عليه و سلم - شديد العناية بنظافة جسده و ثيابه و بيته (20).

هذا و التداعي من خلال ، عديد أحاديث النبي الكريم - صلى الله عليه و سلم - واجب و لازم لدفع البلاء ، حيث لا يسمح بالتداوي بالمحرمات و لا بالنجاسات ،

و لا يسمح لأوامر طبيب يعالج بالخمير ، كما يكره شرب الدواء من المشترك ، و ينكر البعض التداوي بوصفات النصراني (21).

لقد تطورت الممارسات العلاجية في العصر الحديث مع التطور الفكري و التقني ، فنشطت معاهد البحوث و أجريت الدراسات لتبين ما لهذه الممارسات العلاجية من فوائد و خواص شافية ، فتوفرت لدى الباحثين قائمة طويلة من أنواع الأعشاب الموجودة على الأرض ، و قد أظهرت البحوث قدرة معظمها على معالجة الأمراض ، فوجد مثلا قشور الرمان تحتوي على حمض " التنيك " (22) ، و نبات عرق الذهب يحتوي على مادة الزميتين(23)، و يحتوي الثوم على مادة " الأنيدول " (24)، و كان الدكتور : " ديفيد جريستوك " من جامعة" الوليد " باسبانيا، قد أجرى بحثا على " المانجو "، تقتل ديدان البطن لما تحتويه هذه النباتات من مواد تعادل مادتي : البيلا ثيرين و السانتونين القاتلين للديدان.

و قد أكدت الدراسات التي أجريت في أمريكا قدرة " حبة البركة " (الحبة السوداء) في تقوية جهاز المناعة، و مقاومة الأمراض التي تصيب الجهاز التنفسي(25).

و الجدير بالذكر عن هذه الحبة أن رسول الله - صلى الله عليه و سلم - قال: " الحبة السوداء شفاء من كل داء إلا السام "

كما أكدت بحوث أخرى أجريت في معهد البحوث بالقاهرة، أن ورق الصفصاف، و أوراق التوت تحتوي على مادة الساليسين التي تخفض سكر الدم، كما أن " للكر كدية "، و شواش نبات الذرة تأثيرا مخفضا لضغط الدم.

إذن يمكن القول بأن الممارسات العلاجية المعتمدة، و بمختلف أنواعها شهدت تطورا عند الحضارات المتعاقبة، و ذلك تبعا للأمراض التي كان يواجهها الإنسان ومنها كان الطب الشعبي، و الذي اعتمد وسائل و مواد مختلفة، و التي كثيرا ما كانت تسهم في الشفاء من عديد الأمراض، و هو ما أثبتته التجارب بالتقنيات الحديثة، فأصبح من المستحيل الاستغناء عنها، و لكن و أمام التطور السريع الذي يشهده العالم، و الانتقال إلى استعمال تقنيات أكثر تطورا في مواجهة الأمراض التي تصيب الإنسان، هل بالفعل لا يمكن الاستغناء عن هذا النمط من العلاج التقليدي؟ وهذا ما يدعونا للتساؤل أيضا : هل يمكن للطب الشعبي أن يحافظ على استمراريته في ظل هذه التغيرات؟

4 - الخاتمة

لن نبالغ إذا قلنا بأنه لا يكاد يخلو مجتمع من المجتمعات البشرية، من ما يسمى بالطب الشعبي، و القائمين عليه أي المعالجين الشعبيين و الذين يملكون مهارات و حكم استشفائية، و بذلك يعتبر المعالج الشعبي من أكثر الشخصيات المؤثرة في المجتمع الذي يعيش فيه، و يتجلى ذلك التأثير من خلال تفرد ببيع بعض الحكم و الأسرار، و لعل ذلك ما سوف يسهم في الحفاظ على هذه الممارسات، على اعتبارات تلك العلاقة الناشئة بين المعالجين و المعالجين من جهة، ثم ترسخها كموروث ثقافي في عقليات الأفراد، بحيث لا يمكن الاستغناء عنه و باعتبار توارثه بين الأجيال من جهة أخرى.

بالإضافة إلى ذلك يمكن إضافة عوامل موضوعية، لا يمكن فصلها عند الحديث عن هذا الموضوع بالتحديد، خاصة ما تعلق منها بالجانب الاقتصادي، إذا أنه و أمام

تدهور الحياة الاقتصادية، و غلاء مستوى المعيشة، و ارتفاع تكاليف الخدمات الصحية، و ذلك ما دفع بغالبية الناس إلى العودة إلى الممارسات العلاجية التقليدية بمختلف أنواعها، و من ذلك أيضا رسوخ الطقوس العلاجية في الذاكرة الشعبية، و لعل ذلك ما يترجم لنا المنزلة الاجتماعية التي لا زال يحظى بها الطب الشعبي، و قد تثبت هذه الممارسات في المجتمع باعتبار أنها تمثل مظهرا من مظاهر التراث و العادات، بل و حتى المعتقدات الدينية التي يجب المحافظة عليها كونها إرثا مقدسا توفر الشفاء و العافية لطالبي العلاج.

عموما، فإنه يمكن القول من خلال ما سبق ذكره، أن للطب الشعبي مكانته الخاصة، و التي حظي بها من خلال تراكم تجارب و معارف الأجيال السابقة، فأصبح اللجوء إليه في كثير من الأحيان أفضل الخيارات، حيث أثبت نجاعته في كثير من الحالات، و حتى لا يؤول إلى الزوال أصبح لزاما الالتفات إلى هذا النوع من التداوي، لا لكونه أسلوبا يحافظ به الإنسان على صحته و حسب، و إنما باعتباره جزءا من شخصية و هوية و تراث العديد من المجتمعات، و مرآة عاكسة لنظرة الأفراد إلى الأمراض و طريقة مواجهتها، باقتباس أفضل الحلول من الطبيعة و تطويرها بالخبرة البشرية على مر السنين، و ذلك من خلال رؤية كل مجتمع على حدة، و لكن هل يمكن للأجيال اللاحقة أن تقدر هكذا أمر ، و تعمل على المحافظة عليه و تواصل ما بدأت به الأجيال السابقة؟ و يبقى البحث و التنقيب مفتوحا في هذا الموروث الشعبي

الهوامش:

- (1)- خليل حسن إبراهيم الحموي الأعشاب، العلاجات الشعبية للأمراض الشائعة، دار الكتب العلمية، بيروت، 1999، ص، 4.
- (2)- ببيرهنري كلوتز، الإنسان و الطب، تر: منيف المرعي، دار المنارة، سوريا، 1990 ، ص.18.
- (3)- إبراهيم مصطفى و آخرون، المعجم الوسيط، ج، دار الدعوة، القاهرة، 1989، ص. 483 .
- (4)- أحمد أبو زيد و آخرون، دراسات الفلكلور، دار الثقافة للطباعة و النشر، القاهرة، 1980، ص.19.
- (5)- التهميش الكامل العشماوي عثمان، المعتقد الشعبي - دراسة في الطب العرقي ص.26.
- (6)- محمد عباس إبراهيم، الأنثروبولوجيا الطبية- الثقافات و المعتقدات الشعبية ، ج، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، (ب.ت) ، ص ، 180.182 .
- (7)- الموسوعة العربية العالمية (التهميش الكامل)
- anthropologie de la maladie , ed, payot, paris,
- (8)1997,p.48.52

(9)- سامية حسن الساعاتي، السحر و المجتمع، ط2 ، دار النهضة العربية، بيروت، 1993،ص؟

(10)- سعاد عثمان و آخرون، الطب الشعبي ، مركز البحوث و الدراسات الاجتماعية، القاهرة، (ب.ت)، ص. 116 .

(11)- نفسه، ص. 135 .

(12)- نفسه، ص. 159 .

(13)- و هي تلك الأعشاب التي تحتوي في جزء أو أكثر من أجزائها على مادة فعالة واحدة أو أكثر و يمكن أن يعالج بها مرضا معينا، أو يقلل منه، و يشمل مصطلح الأعشاب الطبية، الأعشاب و المواد العشبية و المستحضرات العشبية و المنتجات العشبية الجاهزة، التي تحتوي على عناصر نباتية فاعلة أو تركيبات نباتية أخرى.

(14)- خليل حسن إبراهيم، المرجع السابق، ص.3.

(15)- حيث نجد أنواعا مختلفة و ذات مميزات معينة، توصف في العادة كعلاج لأمراض محددة من تلك الأعشاب و النباتات الطبيعية ذات الأهمية العلاجية، و التي يختلف توزيعها الجغرافي من بقعة إلى أخرى، و بكميات متنوعة أيضا و على سبيل المثال الحصر، نجد أن بلاد الجزائر غنية جدا في أعشابها الطبيعية لما تحتلها من مساحات واسعة و مناخات متنوعة، بحرية و قارية و صحراوية، و ما تتمتع به من دفء و سطوع شمسي و طقس جميل و تربة مختلفة و خصبة

للمغاية، ما أدى إلى تنوع نباتي في التركيب و المميزات الخاصة، و قد أثبتت الدراسات العديدة أن بالجزائر ما لا يقل عن 3500 نوع من النباتات، ينظر عبد القادر حليمي، النباتات الطبية في الجزائر، منشورات برتي،الجزائر ، 2004 ، ص.4.

(16)- أحمد خالد العلاج الطبيعي لماذا؟، مركز الأهرام، مصر، 1990، ص.31.

(17)- أبو مروان عبد الملك الإشبيلي ، الطب العربي في الأندلس، منشورات ثالة، الجزائر، 2007، ص.10.

(18)- نفسه الصفة نفسها.

(19)- نفسه ص.157.

(20)- السيد الجميلي، اعجاز الطب النبوي، دار الشهاب، الجزائر 1977 ،ص.8.

(21)- نفسه ص. 25.

(22)- له خاصية وقف نمو الميكروبات و معالجة القروح.

(23)- تقتل طفيل الزحام (الدونيستاريا).

(24)- قادر على مقاومة حمى التيفوئيد.

(25)- الموسوعة العالمية العربية.